منافذ الوعي الإسلامي إلى العقل لا تكون إلا عن طريق لغة القرآن

بقلم ثلة من أساتذة كلية الشريعة (دمشق)

نشرت مجلة «حضارة الاسلام» الغراء التي تصدر في دمشق خلاصة آراء بعض رجال الفكر حول استفتائنا ننشرها شاكرين .

كان المكتب الدائم لتنسيق التعريب في العالم العربي في نطاق جهوده المشكورة ـ قد بعث برسالة الى المؤسسات العلمية في العالم العربي .. يطلب فيها الاجابة عن نقاط معينة تعالج علاقة الاسلام باللغة العربية في القديم والحديث في كل قطر من اقطار وطننا الكبير . ونثبت فيما يلي الجواب الموجز الذي اجاب به اساتذة كلية الشريعة في جامعة دمشق .

1 ـ لا ريب ان هناك قدرا من التلازم بين الاسلام واللغة العربية ، بمعنى ان الاسلام كلما ارتفع شأنه وشاعت أحكامه ازداد معه شأن اللغة العربية قوة ورفعة وانتشارا ، وان اللغة العربية كلما ارتفع شأنها وتوسع انتشارها وازدادت دوحة التعمق فيها والدراسة لعلومها ، ازداد بذلك امر الاسلام ظهورا واصبح العمل الفكري اليه اشد جلاء واستقامة ووضوحا .

وكيف لا يكون اشتداد الوازع الاسلامي اعظم سبيل الى قوة اللغة العربية والمزيد من انتشارها ، وان الاقبال على تعلمها انما يكتسب اذ ذاك معنى التعبد لله عز وجل والعكوف على فهم دينه واحكامه .

وقد فرغ الفقهاء من بيان انه يجب على المسلم ان يتعلم من اللغة العربية ما يبصره بحكم الله عز وجل في كتابه وسنة رسوله مالا غنى له عنه، وفي ذلك يقول الامام الشافعي رحمه الله في كتابه « الرسالة » :

(فعلى كل مسلم ان يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده ، حتى يشهد به ان لا اله الا الله وان محمدا عبده ورسوله ، ويتلو به كتاب الله وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير وامر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك ، ومهما ازداد من العلم باللسان الذي جعله الله لسان نبوته وانزل به آخر كتبه ، كان خيرا له) .

غير انه لا ينبغي ان يكون خافيا في هذا الصدد ، ان مرد هذا التلازم انما هو نزول القرآن بلغة العرب، فلولا ان الله عز وجل اقتضت حكمته اختيار هذه اللغة ترجمانا لكلامه وتعبيرا عن خطابه لكان شأنها كشأن اي لغة اخرى بل ولنشأ التلازم الذي ذكرنا بين الاسلام واللغة الاخرى التي كانت الحكمة الالهية تختارها .

ومن هنا نعلم انه لا يمكننا ان نقول بحال : انه لولا ان اللغة العربية هي لغة القرآن لما انتشر الاسلام .

2 ـ والواقع التاريخي الذى يبدأ من عصر البعثة النبوية الى يومنا هذا ، اعظم دليل وبرهان على واقع هذا التلازم الذى ذكرناه ، وفيما يتعلق بواقع بيئتنا السورية خاصة ، فان مما هو مشاهد ومعروف عندنا لكل احد انه عندما كانت البرامج التعليمية عندنا فى المدارس الابتدائية والثانوية تعنى كثيرا بتدريس القرآن والعلوم الدينية ، كانت الملكة العربية لدى الطلاب فى غاية القوة والاشراق وكانوا من اجل ذلك يهضمون فى دراستهم العربية منهاجا زاخرا بالعمق والقوة ، فلما قلت العناية اخيرا بالقرآن ودراسة ما يحف به من العلوم الدينية التى تبث الوازع الديني فى النفوس وتشد من أزره ضعفت الملكة العربية لدى الطلاب ضعفا بينا وخطيرا ، واصبح منهاج الدراسة العربية ، رغم ضآلته الشديدة بالنسبة للمنهاج القديم عقبة كأداء فى طريق الطالب لا يكاد يجتازها الا زحفا وجرا .. هذا بالرغم من حشد كل ما قد يظن انه ضمانة لتقوية الطلاب فى هذه المادة ، فى النظام الدراسي العام ، من مثل الاكثار من الساعات الدراسية واشتراط المزيد من الدرجات للنجاح فيها وما الى ذلك .

3 ـ ولا ريب ان من نتيجة التلازم الذى ذكرناه، ما هو واضح لكل متأمل من تأثر الوازع الديني والوعي الاسلامي بما يعتري اللغة العربية من قوة او ضعف، ونحن هنا لا بد ان نفرق بين العاطفة الاسلامية والوعي الاسلامي ، فأما العاطفة ، فلعل التلازم بينها وبين اللغة ضئيل ، ومرد ذلك الى ان للاسلام فى مجموعه سلطانا على الفطرة الانسانية اذا خلي وشانها ، فالفطرة تنقاد وتتأثر بالاسلام كعقيدة وايمان دون اي حاجة الى وساطة لغة ، اما الوعي الاسلامي وما يتبعه من الوازع الديني الصحيح، فان منافذه الى الفكر والعقل لا يكون الا عن طريق اللغة العربية .

ان بلدة اسلامية كتركيا مثلا، لا يعدم معظم اهلها عاطفة دينية متأججة رغم جهل عامتهم باللغة العربية ولكنهم لا يركنون اطلاقا الى اي ركن شديد من الوعي الاسلامي الذى هو وحده الذى يقدر ان يحمي افكارهم الدينية من اي تلبس او خداع ديني قد يتسلل اليهم.

ومن اجل ذلك يلاحظ ان الكيد التبشيري ضد الاسلام انما يستهدف تلك المناطق الاسلامية التى توجد فيها حرارة عاطفية نحو الدين ، ولكنها تعيش قاصية عن الوعي الاسلامي بسبب انحباسها فى سجن العجمة وانسداد المنافذ التى توصل افكار اهلها بحقيقة الاحكام الاسلامية وما تنطوي عليه من منهج وتنظيم .

4 ـ اما فيما يتعلق بمدى تأثير الفكر الاسلامي عن طريق لغة القرآن فى اللهجات او اللغات الاقليمية فى الاقطار الاسلامية ، فان الامر يختلف بالنظر الى اختلاف التاريخ .

فيما مضى ، وحينما كان سلطان الاسلام منبسطا على نفوس الشعوب الاسلامية وسلطاتها الحاكمة معا ، فقد كان تأثير الاسلام على اللهجات واللغات الاقليمية تأثيرا عظيما وكليا ، ولا يجهل احد ان معظم البلاد العربية اليوم انما كان اهلها اخلاطا من الاعاجم المختلفين ، ولا يجهل احد ان التاريخ القديم والقريب يملأ اذهاننابامم من الاكراد والاتراك والفرس والشركس والهنود تجردوا عن خصائصهم اللغوية ، وصقلت السنتهم اللغة العربية بتأثير من الفكر الاسلامي الذى سيطر على نفوسهم .

اما اليوم فمن المؤسف ان نقول : ان التأثير الاسلامي فى اللغات الاقليمية او اللهجات المحلية لم يعد قويا كما كان ، ذلك لان سلطان الاسلام قد انحسر مده ولم يعد يتجلى الا فى نفوس الشعوب الاسلامية كشعوب ، وهذا القدر لا يكفى لظهور اثر الاسلام ولغة قرآنه على اللغات الاقليمية او اللهجات العربية المختلفة .

5 ـ ان اللهجة الاقليمية التى تشيع فى تعابير اقليمنا السوري ، ليست من اللهجات البعيدة عن اللغة العربية الاصلية ، ومن ثم فان تأثيرها على اللغة العربية تأثير جزئي ولا ريب ان يضعف ويقوى حسب اختلاف التأثير الديني قوة وضعفا .

6 ـ ومع ان هنالك لهجة عربية اقليمية لدينا ، فان اللغة العربية الاصلية هي وحدها اللغة العلمية واللغة الدراسية فى شتى مراحل التعليم الابتدائي والثانوي والجامعي ، ومهما كانت العلوم التى تدرس فان الاداة التعبيرية عنها هي اللغة العربية وحدها .

اما اللغات الاجنبية ، فشانها كشان المواد الدراسية التى يتلقاها الطالب فى المدرسة قصدا الى تتميم مقوماته الثقافية وتسهيلا لوسائل الترجمة والتعريب .